الخيال عند العياشي

"رحلة ماء الموائد أنموذجا"

Imagination when ayachi
Typical interact water trip

طالبة دكتوراه/ عمرون منى
قسم اللغة والأدب العربي –جامعة عمار ثليجي –الأغواط
مخبر علوم اللسان

amroune.mouna١٩٩٠@gmail.com

تاريخ القبول: ...١٦/...٠٤/...٢٠٢٢
تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٠٢/١٥ *النشر:١٣/٠٥/٢٠٢٢*

ملخص:

الرحلة من بين الأجناس الأدبية الأكثر ثراء وغنى، وانفتاحا وتعددا للأصوات والخطابات ومن أكثر تجارب العالم الخارجي تعقيدا. ومن خصائص السرد الرحلي أنه يمتلك مناحي وآفاق متعددة ومتشبعة ومن مميزاته باعتبارها جنسا أدبيا تفردُه بخاصية التنوع المفاجئ، إذ فيه من التقطع والتوزع فوق ما فيه من التواصل والتكامل. ويعود تقطعه إلى طبيعة الترحل والتنقل فيه(...)ترابط بين الواقع والمتوقع وتكامل بين ما يرى الكاتب بعينه وما يرسمه الخيال للقارئ وهنا يكمن السحر الذي يمارسه الرحّالة ويتعرض له القارئ فلا يطيق أن يقاومه ولا يقوى حتى على التفلت من شباكه، وهذا ما نلمسه في رحلة العياشي" ماء الموائد"، حيث كان بارعا في تأسيس سرده على اختيارات استراتيجية واضحة منذ عتبة العنوان وعليه فإن التعجيب والإغراب أهم العناصر المبنية لنص لا جدال في أدبيته ونسجه سوى المتعة بلحمة الإفادة. ولعل هذا ما جعلنا نميط النقاب عن مكر تلك الإفادات من خلال الكشف عن بناء النص الرحلي وطاقته الخيالية المدهشة. لقد استطاع هذا النص الفاتن بتنوعاته السردية واستقصاءاته لدائرة الخيال أن يوسع من دائرة الحس ويستنفذ مداها عبر تأسيس مشاهداته على بنية الخطاب والعجائبي والخيال ...كل ذلك من أجل ضمان المشاركة الوجدانية والوجودية على حد سواء. وفي هذا توسيع لدائرة الإقناع التي تنقل المتلقي من لحظة الدهشة إلى ملكوت العبرة.

الكلمات المفتاحية: رحلة–عياشي– خيال– عجائبي–آخر

Abstract:

Literary genres is the most reachable and opened more than experimental outside.

Narration is full of characteristics: shredding and distribution for communication and integration. This refers to travel through. Relationship between what is in and what is coming so, it is a relation what author see and imagine for a reader as a result of the imagination which is created by author (passenger, to send an attractive message that

reader cannot resist. That what we see in "ayachi trip" from the title you notice how is "ayachi" in generous to narrate and to choose a good strategy. That is why we find how it is full of wonder and strange.

This style text improves how it is full of imagination that make a reader impressive the multiple style narration extended and developed from, imagination to reality for sharing its events sensory in tern of speech and imagination. This is for all together (internal/external) to persute a reader for living the wonder mourent.

Key words: journey-ayachi-imagination-miraculous-other.

المقدمة:

يشكل السرد العربي صورة جلية لنمو الأشكال الشفوية المتحولة إلى نص مكتوب يتوحد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة، ومؤلفات التراجم والسير والطبقات، ونصوص المقامات والأخبار، وكل التقييدات المحسوبة على التاريخ والجغرافيا الوصفية والرحلات، وأيضا في مؤلفات الفقه وعلم الحديث، ذلك أن عملية الانتقال من الشفوي إلى المكتوب سجلت بصمات أساسية في رسم تحول استراتيجي ...، والرحلة أحد السرود التي حاولت أن تساير أحداث التاريخ خشية أن ينفلت حبل الزمن وتنقطع سيرورة الأحداث، وهي بهذا وسيلة إجرائية مهمة.

إن موضوع أدب الرحلات متنوع فهو يأخذ طابعه وخصوصيته بحسب الهدف من الرحلة ذاتها، فإذا كانت الوجهة علمية كانت الرحلة علمية، وإن كانت للسياحة فهي للسياحة، وقد اخترنا أحد أنواع الرحلة وهي الرحلة الحجازية، " ماء الموائد" للعياشي التي كانت وجهتها الحج " الرحلة الحجية" ونسبت للحجاز بحكم المقصد.

ومنه نطرح الإشكال التالي: ماهي الرحلة؟ وماهي طرق اشتغال الخيال في رحلة العياشي؟

أولا: مفهوم الرحلة:

١ –لغة:

إنَّ الرحلة كفعل أساسه الحركة يمثلها التنقل المرتبط دومًا بنقطة يمثلها حرف الجرّ " من" ونقطة وصول يمثلها حرف الجرّ "إلى". وهما الحرفان الدالان على الحركة داخل المكان. والرحلة كما هو معروف عرفها الإنسان منذ خلق، فقد تحرك على وجه هذه الأرض، رغبة في طيب العيش، واكتشاف المجهول، وبحثا عما يضمن له البقاء.

جاء في لسان العرب:" وفي الحديث الشريف: عند اقتراب الساعة تخرج نار من قعر عدن تُرحل الناس" رواه شعبة .قال : ومعنى ترحل، أي ترحل معهم إذا رحلوا، وتنزل معهم إذا نزلوا، وتقيل إذا قالوا، وقيل معنى ترحلهم أي تنزلهم المراحل، وقيل تحملهم على الرحيل.[١]

[١] ابن منظور: لسان العرب، (ص١٦١١)

وجاء في القاموس المحيط للفيروز أبادي في نفس المادة: الرحل مركب البعير كالراحلون، ج: أرحل، والرحالة ككتابة: السرج أو من جلود (هكذا) لا خشب فيها يتخذ للركض الشديد. وبعير ذو رُحلة بالكسر والضم: قوي وجمل رحيل قوي على السير. وارتحل البعير: سار ومضى والقوم عن المكان انتقلوا والاسم الرحلة بالضم والكسر.[٢]

٢-اصطلاحا:

إن وجود الإنسان على هذه الأرض، يفرض عليه أن يكون دائم الحركة كثير التنقل، وإن لاقى في ذلك الجهد والعناء، وكابد الآلام والشقاء، فتلك طبيعة حياة البشر ومتطلبات الحياة، والرحلة كانت تمت الإشارة إليه آنفا، هي بكلِّ بساطة قطع مسافة معينة بين نقطتين في فترة زمنية محددة، وغرض محدد، ما يؤكد ما يحرص عليه كثير من المهتمين بدراسة الرحلات، من أن الرحلة الحقيقية هي تلك التي تتأسس على القصدية لذلك يشترط أن يكون لها نقطة انطلاق معلومة، ونقطة وصول محددة كما يوضحه الشكل التالي:[٣]

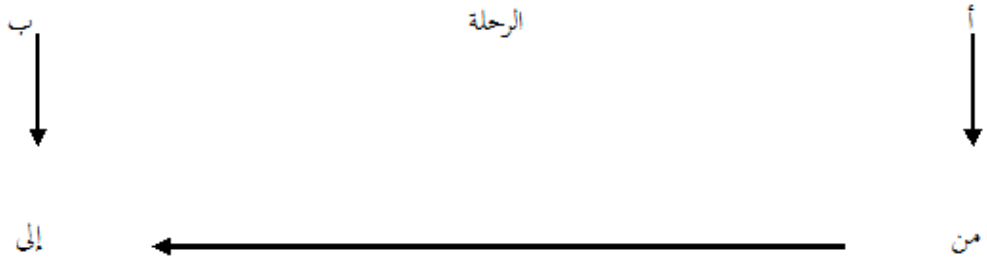

وعلى العموم فإنَّ الرحالة أثناء رحلته، يعيش الحياة بجميع تناقضاتها، تلك التناقضات التي تعتبر مسلمة من المسلمات في حياة البشر، وحياة البشر- كما هو معلوم- بطبيعتها قائمة على التقابل فيها الذكر والأنثى، فيها الخير والشر، فيها البر والبحر، فيها الحياة والموت، فيها القبل والبعد، فيها الدنيا والآخرة، وفيها..... والرحلة بهذه الصورة التي وضحنا، لا تخرج في حقيقة الأمر عما يوضحه الرسم البياني التالي:

[٢] بحر الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي(١٣٠١هـ، ص٣٧١)

[٣] عبد الرحيم مودن/عبد الرحيم بنحادة، (٢٠٠٣، ص١١)

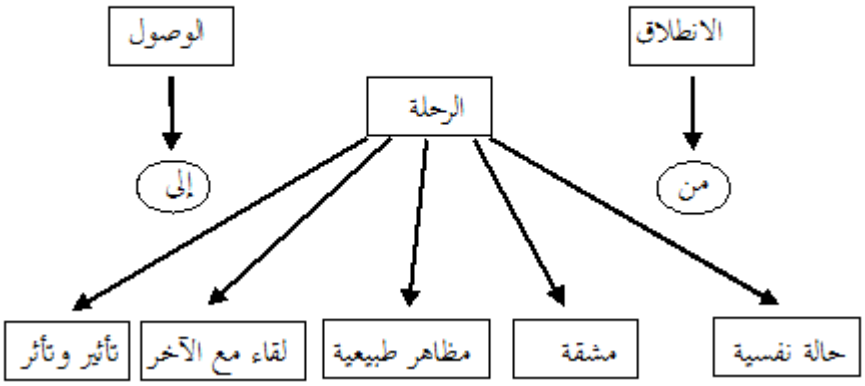

إنَّ التفريق بين الرحلة كانتقال وحركة، والرحلة كخطاب أدبي لا يجب أن يفهم على أنَّه فصل بين النوعين، لأنَّ الفصل بينهما في حقيقة الأمر يستحيل، إذ لا رحلة بدون سفر، والكتابة الرحلية تستلزم القيام بالرحلة، فلا رحلة مكتوبة دون رحلة انتقال إلاَّ في تلك الرحلات التي قلنا عنها أن لا حركة ولا انتقال للجسد فيها، والتي عادة ما تعرف بالرحلات الخيالية.

ثانيا– مفهوم الخيال:

الخيال من المصطلحات الشائعة في حقول المعرفة عامة، وفي حقل الشعرية العربية خاصة، فالخيال اتّسع اتساعًا لا متناهيًا، فاقتحم مجالات متعددة، واتخذ ضمن كلّ واحد منها تعريفًا خاصًا حسب طبيعة المادة التي يهتم بها التخصص، وبالتالي فالسؤال الذي يطرح نفسه ما الخيال؟

١–لغة:

جاء في لسان الغرب لابن منظور، مادة (خيل)، ما يلي: " خال الشيء يخال خيلا وخيلة، وخَيْلَةً وخالا وخَيلاً وخَيُلاَنًا ومَخَالةً ومَخْلَةً فتَخَيَّلَ وخَيْلُولةً: ظَنُّهُ". "و تخيل الشيء له: تشبه، و تخيل له أن كذا أي تشبه وتخايل، يقال تخَيَّلتُهُ لي، كما تقول تصورته فتصور، و تبينته، و تحققته فتحقق، والخيال والخيالة: ما تشابه لك في اليقظة والحلم".[٤]

تنحصر الدلالة المعجمية العربية القديمة لكلمة" الخيال"[٥] في الشكل، والهيئة والظل والطيف، أو الصورة التي تتمثل لنا في النوم، أو أحلام اليقظة ، أوفي لحظات التأمل، عندما نفكر في شيء أو في شخص، أي أن هذه الدلالة وجميع هذه المعاني كما يبدو تستند في بنيتها العميقة إلى معنى اللاّيقين وعدم الراحة أو التأكد من الشيء، وهذا ما

---

[٤] ابن منظور: لسان العرب، ج٢، (ص ١٣٠٤)

[٥] المرجع نفسه،(ص٥٥)

يفسّر ارتباط المشتقات الأخرى: الخيال والمتخيل والتخييل والتخيل بهذه المعاني، ويؤكد وجود قاعدة دلالية واحدة مشتركة بينهم، وإن كان لا يعني أن هذه الاصطلاحات جميعها تتطابق مطابقة كلية، وإنَّما يعني فقط تقاربها.

في الدلالة والاصطلاح وافتراقها في التداول بعد استعراض المعاجم اللغوية التي تقدم المفاهيم الأولية البسيطة التي يمكن اعتمادها في تحديد بعض ملامح المفهوم، سنقدم أهم الدراسات التي تعرضت للمفهوم.

٢– الخيال في الدراسات القديمة:

أ– في الدراسات الفلسفية:

طُرحت قضية الخيال في الثقافات الإنسانية قديمًا، ويعد الفكر الفلسفي اليوناني أول من أثار هذا الإشكال الإبداعي من خلال مفهوم " المحاكاة" الذي يعكس بصورة واضحة التجربة الإنسانية في علاقتها بالواقع.

يحتل مصطلح " المحاكاة" في شعرية أرسطو(ت–٣٢٢ق.م) موقفا جوهريًا، لأنَّه يمثل الخيط الناظم لتصوراته الجمالية، ويحضر الخيال للمحاكاة عند أرسطو وهو يقارن بين الشعر والتاريخ:" إن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بكون أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلاً، بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع".[٦]

فالواقعي في نظر أرسطو هو المرتبط بعمل المؤرخ، أمَّا الخيال فهو من عمل الشاعر الناظم للملاحم السردية، والذي يروي ما هو غير واقعي ولكن محتمل الوقوع.

أمّا ابن سينا فركز في تعريفه للتخييل على جانبه الوظيفي وأثره النفسي أكثر مما ركز على عناصره الجمالية ومقوماته الأسلوبية، وهذا من خلال تركيزه على جملة من الدوال التي تحيل إلى بعض الحالات والانفعالات النفسية، وتكشف أنّضه استجابة ذهنية للمتلقي تبرز على مستوى انفعالاته أو أفعاله، يقول ابن سينا:" التخييل هو انفعال من تعجب، أو تعظيم، أو تهوين، أو تصغير، أو غم، أو نشاط من غير أن يكون الغرض بالمقول إيقاع اعتقاد البتة"[٧] وبهذا يستعيد جانب التصديق فمفهوم الصدق و اللاّصدق في الإنتاج التخييلي يصبح بدون جدوى كما هو الحال في الشعر.

ب–الخيال في الدراسات البلاغية:

ارتبط الخيال في البلاغة العربية بعَلمين أساسين هما: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، وحازم القرطاجني(ت٦٨٤هـ) لمقارنة الخيال في البلاغة العربية يجب التطرق لثنائيات (الصدق والكذب) في الجملة الخبرية وهي التي قام عليها" وأما القسم التخيلي فهو الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق، وإن مات أثبته ثابت، وما نفاه منفي، وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلاَّ تقريبًا، ولا يحاط به تقسيما وتبويبًا، ثمَّ إنَّه يجيء

---

[٦] أرسطو: فن الشعر،(١٩٧٣م، ص٢٦)

[٧] حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء،(١٩٨١، ص ٩١)

طبقات، ويأتي على درجات فمنه ما يجيء مصنوعًا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتَّى أعطى شبهًا من الحق، وغشي رونقًا من الصدق، باحتجاج يخيل، وقياس يصنع فيه ويعمل".[٨]

والخيال عند الجرجاني قوم على:

١ -فعل التشبه

٢-كونه منافٍ للحقيقة، بل هو ضرب من الكذب.

٣- يميزه عبد القاهر الجرجاني على الاستعادة، على أساس الحقيقة والتشبيه، بل يفصل بينها الاستعارة كقول بلاغي يوفر مقومات الاستدلال العقلي على المعنى المقصود، وبين الخيال بما هو فعل يخرقه هذه القاعدة حتى حين بل يكون قائما في أصله على تشبيه أو استعارة.

٤-ليس له أي أساس معرفي أو علمي، بل هو قائم على الإيهام".[٩]

من خلال هذه التصورات العربية –الفلسفة والبلاغة- نصل إلى أنّ حضور مفهوم الخيال ارتبط بخلفيات معرفية ومنهجية نتيجة طبيعة المادة التخييلية المتعامل معها ألاَّ وهي " الشعر"، فالخيال خاصية تميزها الإبداع الشعري، وارتباطه بالمتلقي من خلال استهداف الجانب النفسي في المتلقي دون الجانب العقلي، تكسير التخيل جانب التصديق أو مطابقة الواقع في الصور التخيلية المركبة، لأنَّ القصد من الخيال الإقناع ليس بالحجج المنطقية، ولكن بالاستمالة النفسية للمتلقي.

ج- الخيال في الدراسات الحديثة:

تعددت مقاربات الخيال في الدراسات الحديثة، بسبب تطور مجال المناهج والأدوات الإجرائية، وتطور الاهتمام بالجانب الاصطلاحي، وهو ما ساعد على اتساع المفاهيم وتعدد الدلالات.

توقف عند تعريف لوران جيني Laurent Jenny للتخييل[١٠] في مقال بعنوان La faction باعتباره عالمًا دلاليًا، ويتعلق هذا المعنى بعوالم التخيل المدمجة في الأعمال الأدبية، والتي تصف هذه العوالم وتحدد علاقاتها بالواقع وتستلهم هذه العوالم، دلالتها من نظرية العوالم الممكنة [١١] فالخيال يكتسب دلالته من خلال مساهمته في بناء العوالم السردية المحكيات، وتبقى العوالم الممكنة صورة من صور التخييل التي يتضمنها الخطاب الأدبي.

---

[٨]عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، (١٩٩٢، ص٢٣١)

[٩]ينظر: المصطفى مويقن، (٢٠٠٥، ص٩٥)

[١٠]سعيد جبار: من السردية إلى التخيّلية، (٢٠١٣، ص٥٤)

[١١]المرجع نفسه، (ص٥٥)

ارتبطت جل التصورات بالخيال باعتباره محاكاة واقعية أو أنّضه مخالف للواقع، وهناك من اعتبره خطابًا غير جاد، ولا جديتُه هنا ليست نابعة من كذبه، بل هي مرتبطة بدلالته غير الطبيعية التي يتضمنها خطاب التخييل، ويدعو متلقيه إلى فهمها وإدراكها.

إنّ الخيال الذ ي نروم مقاربته في هذه الدراسة هو المرتبط بالمحكيات الواقعية Réctis Factuels التي تتجلى في صورتها الأولى كسرود تنتج ما وقع وتعمل على الأحداث والوقائع من دلالات ضمنية بعيدة عن دلالتها الطبيعية، والتي تستخلص من خلال السياق العام الذي أنتج فيه النص فما وقع يكتسب دلالته المباشرة الطبيعية من الملابسات التي وقع فيها، لكن عندما يعاد إنتاجه في زمن مغاير، وفي سياق سويو- ثقافي –مغاير يكتسب دلالة جديدة ترتبط بهذا السياق، وقد تكون علاقة رابطة بين الدلالتين الأولى والثانية، وهي التي تشكل جسر المرور لا من الواحدة إلى الأخرى.[١٢]

ثالثا: الرحلة بين الواقع والخيال:

إن تحول تجربة الرحلة من وقائع ومشاهدات إلى تذكُّر ثمَّ فعل الكتابة ما يتم عبر قنوات ، منها قناة الخيال الذي يجعل منه ابن عربي أتم علوم المعرفة[١٣] ، فالنص الرحلي هو خليط من الواقعي والخيالي..... والرحلة بهذا المعنى، هي " نص حامل للسيري والبيوغرافي و نصيصات في شكل حكايات مشاهدة أو مسموعة ومقروءة ، بينما رؤية الراوي المدخلة بكلّ تلك العناصر والأشكال هي رؤية احتمالية تلتفظ اللامألوف والعجيب[١٤] .

وهذا ما جعل أغلب النّقاد والمحللين يخرجونه من الأدب الرسمي وجعله ينتمي إلى الأدب الشعبي، إذ يقول شاكر خصباك:" لكن دارسي التراث العربي الإسلامي من البحاثة العرب ظلوا ينظرون إلى الرحلة على أنَّها نوع من الأدب الشعبي الأسطوري نظرًا لازدحامها بالحكايات ذات الطابع الخرافي"[١٥].

إلاَّ أن الخيال في الرحلة ليس كذبًا وإنَّما هو عنصر فني، ورؤية الأشياء تتضمن موقعًا من العالم الذي يراه الرحّالة، قد تصطدم بتصوراته القبلية، فبالتالي الرحلة هي تعبير عن آراء الرحالة و تأهلاته الموصولة بأحلامه وخيالاته.[١٦]

شأن الرحلة المسماة واقعية، إذ يحضر فيها الخيالي بأشكال مختلفة وفي الرحلة الواقعية متعة الخيال فيها تظل غير مكتملة لأنَّها تجعل الخيال والمعرفة يتقاطعان ويخصبان بعضهما البعض.

---

[١٢] سعيد جبار: من السردية إلى التخيّلية، (ص٥٣)

[١٣] ينظر: سليمان العطار(١٩٩١، ص١٤٥)

[١٤] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجنيس،(٢٠٠٦، ص٤٠٠)

[١٥] شاكر خصباك: في الجغرافية العربية،(١٩٨٨، ص١٠)

[١٦] ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي،(ص٤٠١)

رابعا: الخيال في الرحلة العياشية:

١–ملخص الرحلة" ماء الموائد":

كان خط سير الرحلة من "سجلماسة مرورًا بالمغرب ثمَّ الجنوب الجزائري فالجنوب التونسي فطرابلس فالقاهرة فالحرمين الشريفين، تمَّ انتقل بعد ذلك إلى أهم المدن الشامية ، غزة، الرملة، بيت المقدس، الخليل" [١٧]، يقول العلامة عبد الهادي النازي" وتعد رحلة العياشي من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشارًا لأنَّها أكثر مادة وأكثر تنوعًا، وقد طفق الرحالون من اللاحقين ينتقلون عنها دون أن يعودوا إلى مصادر أخرى....."[١٨]، وهذا ما أكد عليه في بداية رحلته فقط وإنَّما ميدان خصب لشتى المعارف حيث يقول" وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون كتاب علم لا كتاب سمر وفكاهة وإن وجد الأمران فيهما معًا فذلك أدى لنشاط الناظر فيها"[١٩]، وقد راعى في رحلته مستوى القارئ وطموحه العلمي وهذا هو السر وراء التنوع المعرفي لهذه الرحلة .

كان وراء هذه الرحلة رغبة قوية لدى أبي سالم لزيارة البقاع المقدسة رغم ألم الغربة والفراق الذي قد يعانيه أثناء ذلك فهو يعزي نفسه في بداية الرحلة بأبيات شعرية حيث يقول:"

ذريني أرد ماء المفاوز آجنا حيث ماء للكرام معين

دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الرسول دفين"[٢٠]

وإن من بين ما وضعه هدفًا لرحلته" ما يشترك في معرفته عام الحجاج وخاصهم من أوصاف المسالك وتعداد المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذلك مما لا تطمح إليه عيون الفضل وترتاح لذكرهم أهل النبل من لقاء المشايخ الفضلاء وحاضرة الأدباء والنبلاء ومباحثة الأذكياء وزيارة الأتقياء".[٢١]

---

[١٧] العياشي عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد،(ص١٧)

[١٨] عبد الهادي النازي، رحلة الرحلات، (٢٠٠٥، ص٢٠١)

[١٩] أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية،(ص٠٢)

[٢٠] المصدر نفسه، (ص٥٢–٥٣)

[٢١] المصدر نفسه، (ص٥٣)

*العياشي هو: عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي المغربي الفاسي المالكي الصوفي، ولد سنة١٠٣٧هـ، ينتمي إلى قبيلة " آل عياش" بسجلماسة، ونشأ في طلب العلم كعادة أهله، ثمَّ ارتحل إلى المشرق ومن مشايخه: الإمام الآبار، الشيخ ميارة، أبو زيد بن القاضي، ومن مؤلفاته: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، ماء الموائد أو الرحلة العياشية، التعريف والإيجاز ببعض ما تدعوا الضرورة إليه في طريق الحجاز، تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية، سوق النفوس وتوفي بالطاعون شهيدًا سنة ١٠٩٠هـ. الرحلة، ج١، ص٠٧–٠٨.

لا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حجّ إليه ملايين البشر في كلّ جبل مثل الجزيرة العربية، ولا يوجد موطن استقطب خمس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها الروحية مثل الحجاز، الوطن الروحي الأوّل لكلّ مؤمن.
إنَّ قيام الرّحالة بالمناسك إنَّما الهدف منه تعليمي من خلال التكرار، إلاَّ أنَّ هذه الممارسات تتحدد بتحديد الممارسين، وبالتالي يتجدد البعد الرمزي الخاص بكلّ حاج.
أما على مستوى كتابة النَّص الرحلي فيجب التمييز بين البعد والقرب إلى بيت الله وما يحول حول الحاج من مخاطر ومغامرات سجلها العدد من الرحلين فخطاب الرحلة العياشية يصبح وسيلة للتطهير والتسامي.

٢–وصف المكان المقدس:

تتحقق رؤيا الرحّالة في تمثله للمكان المقدس مثلما تتحقق رؤيته من خلاله، إذ لا أهمية للرؤية السطحية عبر الحواس إذا لم تكن تفضي إلى ما بعدها عندما يتجاوز الأمر الحواس ليصل إلى مستوى الروح، وعندما تنقلت قوة الإدراك من مستوى البصر لتدخل مستوى البصيرة، ولعلّ الخيط الرهيف بين المستويين يجعل أمر الفصل بينهما وعزل مواقع التداخل بين الرؤية والرؤيا أمرًا من الصعوبة بمكان، خاصة على مستوى الفضاء القدسي الذي يسعى من خلاله الرحّالة الحاج أو الزائر لمعانقة الغيب وتطهيرْ من دنسْ المغامرة الجسدية المفعمة بالملذات والشهوات والمغريات التي لا تخلو من المحرم في كثير من الأحيان، وتعد كتابة تجربة الحج أو الزيارة أو طقوس العمر أو استعادتها من رحم الذاكرة، في حدّ ذاتها، إعادة لهذه التجربة واسترجاعًا لها وتكرارًا لحلم العبور صوب عالم الرؤيا الرحب، ومع أنَّ اللغة، في غالبية الأحيان، تعجز عن احتواء التجربة وتفسل في تشخيص ما يملأ الذات لحظتها، فالرحّالة يسعى عبر الإشارة وتكثيف العبارة وترميزها، إلى خلق عالم مثيل قد تخيل على أجواء التجربة إن لم يستطع نقلها.

ونشير بدءًا إلى أنَّ العياشي* هو بمثابة علم من أعلام الثقافة والفكر في القرن السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري، وهو سليل بيت صوفي، وأحد من قام على خدمة الزاوية العياشية بالأطلس الكبير، استهدفت التبرك بزيارة الحرمين الشريفين وأداء مناسك الحج، وتحصيل ما يتيحه ذلك من فوائد دينية واتصالات طرقية وعلمية[٢٢].

تحتوي الرحلة على أخبار كثيرة حول أخبار تهم البلدان والأقوام التي زارها العياشي، نكتفي بالإشارة إلى ما يطبعها من ثراء معرفي وما تتسم به من تنوّع وشمولية فيما تعرضه من جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية، كما نؤكد على طغيان المؤثرات الدينية والسلفية والعلمية فيما دوّنه العياشي من معلومات ، وما أظهره من اهتمام مفرط بأهل الصلاح وأرباب الزوايا والعلماء والحجاج.[٢٣]

---

[٢٢] ينظر: عبد القادر زمامة" مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق"، (ديسمبر ١٩٨٢، ص٨٧)
[٢٣] ينظر: حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، (١٩٨٩، ص١٢٧)

ويذكر العياشي أن " المسجد المقدس آية من آيات الله في فخامة البناء وسعة المقدار، فيه أشجار كثيرة من التين والزيتون عظيمة،(...)و حيطان القبة وأرضها كلّها مزخرفة بأنواع الفسيفساء المصبوغة بأصباغ مختلفة ونقوش عجيبة، وهي في غاية الارتفاع وإتقان البناء، وأبوابها في غاية العظمة والإتقان".[٢٤]

ويذكر بعض غرائبها، فيقول:" وإنَّما نذكر من ذلك بعض ما رأيناه وزرناه، فمن ذلك حجر خارج بعض أبواب المسجد الغربية مثقوب، هو فيه أصل حائط يزوره الناس ويدخلون فيه أيديهم ويتمسحون به، يقولون إنَّه الذي ربط به النبيّ صلى الله عليه وسلم دابة البراق ليلة المعراج، وخبره مذكور في الصحيح"[٢٥].

فهنا الرحالة يؤكد القراءة بالمشاهدة والزيارة.

٣-العجائبي في الرحلة العياشية:

إنَّ الرحلة في بعض جوانبها تجميع لغرائب وعجائب الآخر، إنسانًا وتاريخًا، فهي شيء غير مألوف والرحلة هي خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف[٢٦]، فالرحلة من جهة كونها حركة سفر وانتقال إنَّما تُترجم الرّغبة في العبور من الهنا إلى الهناك إلى المطلق، الرّحلة ليست حدث سفر وتجوال في المكان أو الوهم والخيال فحسب، بل ترجمة فعليّة لرغبة الكائن في الخلاص من شرطي الزَّمان والمكان والعدم[٢٧].

إنَّ الرحّالة إنسان لا يعرف إلى الاستقرار سبيلاً، فهو دائم البحث عن الفريد والعجيب والمغاير، لذا لا عجب أن يأتي أدب الرحلة غنيًّا بحضور العجائبي

يتمظهر العجائبي عند العياشي ، فهو متنوع في العمران والعادات والسلوك، ويكثر عند العياشي ورود العجيب والغريب المرتبط بالمعالم العمرانية والأمكنة والطبيعة، إذ يقول في حديثه عن الإسكندرية:" ومن عجائبها العمود المشهور بعمود السواري وهو باق إلى اليوم ماثل في الهواء تحار الأفكار في صنعه....ومن عجائبها المنارة المشهورة"[٢٨] يذكر لنا من مباني مصر العجيبة التي لا شبيه لها في الدنيا، حمامها الكبير، فقد أثنى عليه الأطباء[٢٩]، ويذم العياشي بعض المدن المصرية المحاذية للنيل كمدينة الطينة يقول:" وهي قرينة خبيثة لا دنيا بها ولادين" [٣٠]. مرجعيات العياشي دينية وتاريخية، ومن ثمَّ جاء متنوعًا بين الاجتماعي والديني والغيبي والتاريخي، فهو رحالة يقدس

---

[٢٤]العياشي عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد،(ص٤٠٧)

[٢٥]العياشي: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد، ج٢، (ص٤٠٨)

[٢٦]المصدر نفسه، ج٢، (ص٤٦٥)

[٢٧]المصدر نفسه، ج٢،(ص٤٧١)

[٢٨]المصدر نفسه، ج٢،(ص٤٥٠)

[٢٩]المصدر نفسه، ج١،(ص٨٠)

[٣٠]المصدر نفسه، ج١،(ص١٢٥)

الأمكنة بآثارها. ويذكر لنا: ومن غرائب أهل ليبيا –قرى نفزاوة– أنهم يحرثون ببقرة واحدة أو يحمل أو بإنسان فطال تعجب الرحّالة ومن معه[٣١]، ثمَّ يفسر ذلك بهشاشة الأرض وعدم قسوتها، ويواصل حديثه عن أهل ليبيا، فيحكي الرحّالة على لسان أهل بلاد برقة حكاية زراعة شجر الزيتون وسبب ذلك أن الملك الذي بنى المدينة وقع الموت في عسكره فأراد معرفة السبب فشق على بطن أحد عسكره فوجد فيه دودة ، فعلم أنَّها سبب موته، فصبت عليها جميع الأدوية واحدًا فواحدًا، فلم يمت حتى أخرج زيتًا جاء به من أرض الشام، فصب عليها قطرة منه فماتت، فعلم أنَّ دواء ذلك المرض أكل الزيت، فبعث إلى الشام وجاءه غرس الزيتون[٣٢].

ويتحدث العياشي عن أخبار مكة ذاكرًا غار حراء ويروي:" شيخنا أبو مهدي عيسى أنَّه خرج ذات ترة للتحنث بهذا الغار، وكان يخرج إليه قبل ذلك بهذا القصد، وخرج معه في هذه المرة ثلاثة من أصحابه من الهنود، وكان اثنان منهما مقيمين معه، والثالث يتردد عليها بما يحتاجان من ماء وطعام، قال: كان معي كتاب" بداية المجتهد" للحفيد ابن رشد أطالع فيه أحياناً، فبينما هو ذات يوم في الغار وصاحباه في القبة والثالث تحت صخرة هناك، إذ عرض في السَّماء عارض غيم وبرق، ثمَّ أرزم الرعد، وأتى بأمر هائل، قال: ما رأيت مثله قط، فلم أشك أنَّه الموت، ولزمت مكاني، وطبت نفسًا بشرف البقعة، وقلت: حبذا لقاء الله في مثل هذا المكان، وألزمت نفسي حضور القلب منتظرا حلول القضاء حتى انكشف ذلك.

وخرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان في القبة ماتا، وأحدهما جالس على هيئته لم تتغير منه شعرة، والآخر ساقط قد سال الدم فالتمست الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة وقد سلمه الله فبعثته إلى مكة ليعلم أصحابنا"[٣٣] . يقدم العياشي هذه الحكاية الغريبة للوصول إلى عدم التحنث في مثل هذه الأماكن ويقرّ الشيخ بأنَّه لم يرجع إليه إلاَّ زائرًا.

ومن العجائب يذكر انفتاح الأبواب رغم أنها مغلقة لرجل أعرابي توسل فنادى نبي الله–موسى عليه السلام– من أجل إطعام بناته فأخذ الستر من قبر النبي وباعه في السوق[٣٤]

٤–الآخر عند العياشي:

تتبلور شخصية العياشي من خلال خطاب الرحلة كمقوّم لمجموعة من السلوكات والأفعال التي تنجز في فضاءات دينية واجتماعية معينة، فهو يجيز بعضها ويذم بعضها الآخر، ويستنكر أخرى لبعدها عن الدين. شخصية العياشي إذا ستظهر فاعلة مؤثرة في علاقاتها بفضاءاتها وشخصياتها، هذا التفاعل الذي يظهر عنده في المواقف الآتية:

---

[٣١]المصدر نفسه، ج٢،(ص١٥٣)

[٣٢]العياشي: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد، ج٢،(ص٤١١)

[٣٣]المصدر نفسه، ج١،(ص٧٠–٧١)

[٣٤]المصدر نفسه، ج١، (ص٧٢)

-هي خطاب فيه من الإنكار فيما يتعلق ببعض الأحداث والوقائع أو العادات التي يمارسها الناس في فضاء من الفضاءات لكن الرحّالة يرفضها رفضًا باتا لأنَّها لا تتلاءم ومعتقداته.

-وقد يكون الآخر عند العياشي : هو الذي من الدين نفسه فعندما يتحدث عن إمام جامع المالكية عشية دخولهم المدينة،-وَرَكَلاَ- يصفه بأنّه لا يفقه شيئًا[٣٥] . فلعنته يكثر فيها التحريف وإدغام الحروف وأنَّه يحفظ الخطبة كما وجدها. والآخر عنده الذي لا ينتمي إلى مجاله السني من خلال حديثه في مساجد المدينة فإذا به يدخل إلى مساجد الروافض، فينكر على المؤذن أنَّه كبر أربعًا في أوله وفي آخره[٣٦]. أما الشيعة من –أهل العراق- فيذكر العياشي زيارتهم لمشهد إسماعيل بالمدينة وتعظيمهم إياه" وسبب ذلك-والله أعلم- أن الرافضة-قبحهم الله- منهم طائفة تقدم إسماعيل على أخيه"[٣٧]، وبهذا يورد العياشي ألفاظ الذم والاستقباح.

ونجد معتقد الاختفاء عند هذه الطائفة وقد جاءوا إلى البئر " وقفوا عليها وترحموا ودعوا، وقال لهم كبيرهم: إنَّ هذه البئر هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق فغاب عن أعين النّاس إلى الآن، وهم يظنون أنَّه قد مات، أو كلام هذا معناه، وقضينا العجب من حمقهم وقبح اعتقادهم في الذي آل بهم إلى تتريههم عن الموت"[٣٨]، فخطاب الرحّالة في بدايته قادحًا منكرًا لسلوكهم إلى حدِّ الكشف عن ذاتية معادية لهم، ويذم عادات نساء المدينة بقوله: " بأنهنَّ يخرجن ويباشرن البيع والشراء ويكلفن الرجل مالا طاقة له به من أجل الشوق"[٣٩] إلاَّ أنَّه يذكر الجانب الآخر أي الجانب الإيجابي، ويتحدث عن والي المدينة واهتمامه بالعلم وجمع الكتب".[٤٠]

-ويذكر العياشي عند دخوله إلى طرابلس:"... وجاء ونحن هناك مركب معهم كتاب من الخاقان الأعظم، يأمر فيه بالزينة، التي جاء خبرها ونحن بمصر، فزينت طرابلس سبعة أيام بلياليها....وأكثروا من الأعاجيب من تماثيل وتصاوير (...)، وتعطل على الحجاج بسبب هذه الزينة جل أسبابهم من بيع وشراء، وزاد ذلك في أهد عطلتهم طولاً...".[٤١]

ولذا يصعب الإلمام بكلِّ تفاصيل الصورة التي عكستها رحلة العياشي نؤكد مجددًا على الحضور القوي للمؤثرات السلفية العلمية في أحاديث الرحلة وانحياز صاحبها إلى صف من يسعى إلى العمران والعدل والجهاد، وتحامله على

---

[٣٥]العياشي: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد، ج١، (ص٢٩٦)

[٣٦]المصدر نفسه، ج١،(ص٢٩٧)

[٣٧]المصدر نفسه، ج١، (ص ٧٢)

[٣٨]المصدر نفسه، ج٢، (ص٤٨٧-٤٨٨)

[٣٩]المصدر نفسه، ج١، (ص٣٣٦)

[٤٠]المصدر نفسه، ج٢، (ص١٠٣)

[٤١]المصدر نفسه، ج٢، (ص ٤٨٧-٤٨٨)

من له يد في الخراب والجور وإهمال شعائر الله ومستلزمات عقيدته السمحاء. وقد تحددت مواقف العياشي إزاء من أتى على وصفهم بناءً على هذه المرجعية.

٥–الحلم عند العياشي:

تتم المزاوجة بين السرد والتأويل في خطاب الأحلام، فيكون بمثابة الحدث الواقع في الحاضر، غير أنَّ السارد– الرحّالة– يستبق الأحداث ليؤثر على تحقق هذه الرؤيا سواء تعلقت به أو بغيره، ويبدو أنَّ الرؤيا في خطاب الرحلة العياشية قد شكلت زاوية مهمة لتنوع موضوعاتها وفضاءاتها وأصحابها. فبدأ الحديث عنها في الصفحات الأولى من الرحلة من خلال ذكر رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام واختلاف الفقهاء والمتصوفة في تأويل حقيقتها، ليصادق القارئ بعد ذلك وعلى طول الرحلة مجموعة من المنامات أو الأحلام التي تربط شخصية من الشخصيات إمّا المصاحبة للرحّالة في رحلته، أو التي ورد ذكرها من خلال الحديث عن فضاء من الفضاءات. وما يهمنا نحن من هذه المنامات هو طبيعة خطابها ومزاوجته بين السرد والتأويل، وهي مزاوجة تحرك ذهن المتلقي في اتجاه مجموعة من الأسئلة التي تكسر منطق الواقع في الخطاب الرحلي، وحمل جوانب منه على تخييلية خاصة تتخلله من خلال تأويلات للوقائع والأحداث وتعمل على ملئها بدلالات جديدة لم تكن حاضرة في ذهن الرحّالة. ومن أحلامه التي يؤولها بتحقق ما وقع مباشرة نقرأ:

–فهنا الراوي هو الرائي الذي يرى نفسه ماله بمسار رحلته فالأحلام انعكاس للرغبات وتحقيقًا لها رؤيا للرحالة العياشي يقول:" كنت رأيت في النوم عند ابتدائنا لقراءة الشمائل أن صاحبنا الشيخ المسن عبد الكريم التمام أتاني بسبحة من جواهر ويواقيت ثمينة فجعل يُظهر لي محاسنها واغتبطت بها كثيرًا، فلما كان الغد بعد فراغنا من الدرس ابتدأ الشيخ عبد الكريم المذكور الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي جرت بختم المشايخ بها الدروس في البلاد المشرقية كلها وهي " اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون، يكررونها ثلاثا في آخر كل درس خصوصًا الدروس الحديثة، ولم نزل نقرأها عند الفراغ من القراءة إلى ختم الكتاب، فتأولتها الرؤيا التي رأيت، ولعمري إنَّها رؤيا صادقة فإذا لم تكن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات بمنزلة الجواهر والياقيت في الأموال، فلا شيء غيرها في العبادات أحق بهذا الوصف"[٤٢] هذه القراءة بما تحويه هي الجواهر، يقدم الرحّالة حدثين مختلفين في الزمن يتعلق الأول بالرؤيا في النوم والثاني بما تلقاه في مجلس الشيخ عبد الكريم من علوم الحديث، قدم السارد وقائع متتالية وقعت بين الحلم ليلاً، والواقع نهارًا. وبعدها مباشرة يتحول الرحّالة من سارد إلى مؤول، ليربط بين الحدث الحلمي والحدث الواقعي. وبهذا يخترق حدود الواقعية التي تشترط التوثيق ليتحول إلى خطاب تخييلي تأويلي يجمع فيه بين حدث الحلم والواقع.

---

[٤٢] العياشي: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد، ج١، (ص٣٣٦)

ومن رؤيا الغير التي يذكرها العياشي، حلما لرجل مغربي يخبرنا به على لسان الفقيه سيدي الشيخ محمد الفزاري محدثًا الرحّالة يقول:" فجاءني ذات يوم وقال لي: إني رأيت في النوم أخي، ورأيت رجلا جالسًا مقطوع اليد تسيل دمًا، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا الإسلام، قطعو يدي سِلا، قال: فلما أخبرته قلت له: الذي يظهر لي من رؤياك أن الرجل الصالح المجاهد الذي كان سِلا قد قتل، قال: وبعد ذلك في آخر العام قدم الحجاج من المغرب وأخبرونا بموته (رضي الله عنه).[٤٣]

نلاحظ في الحلم أنَّه يتم رواية الحلم- الرؤيا- وتفسيرها في الآن نفسه من طرف الفقيه سيدي الشيخ محمد الفزاري، وتتحقق كما فسّها وهذا دلالة على تمكنه من علم تأويل الأحلام.

الخاتمة:

وفي الأخير ما يسعنا إلاَّ القول أنَّ هذه الدراسة توصلت إلى العديد من النتائج أهمها:

-أنَّ نمط كتب الرحلات فن قائم بذاته يحوي الكثير من المعلومات التي تهم المؤرّخ والاقتصادي والاجتماعي والسياسي وغيرهم، وتنوع دوافع القيام برحلاتهم من دينية، وعلمية، وتجارية وسياسية، واختلاف مقاصدهم.

-تميزت الرحلة العياشية بتشعب علومها من فقه وحديث وتصوف وسير..... الخ.

-خطاب الخيال يولد من رحم الواقعي، إذْ يعمل الحلم والعجائبي على صياغته وتصنيف الأحلام والعجائب وورودها، بعد تشكّلها في صياغات متنوعة، من خلال تحليل نصوص رحلية مختلفة.

-العجائبي في النص الرحلي متجذر في الثقافة العربية ويستمد قوته من الدين.

-تعد طاقة الخيال التي تدير خطاب الرحلة الآسر للضجر، والموسع لدائرة الحلم.

قائمة المصادر والمراجع:

١-أرسطو: فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٧٣.

٢-بحر الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٣، ١٩٧٩، مادة" رحل" باب اللام، فصل الراء.

٣-حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الجيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت، ١٩٨١.

[٤٣] المصدر نفسه، ج٢، (ص١٠٣)

٤-حسين فهيم: أدب الرحلات، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩.

٥-سعيد جبار: من السردية إلى التخيّلية " بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، دار الأمان، ط١، الرباط، ٢٠١٣.

٦-سليمان العطار: الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجالات)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، د.ط، القاهرة، ١٩٩١.

٧-شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجنيس-آليات الكتابة-خطاب المتخيل، رؤية النشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦.

٨-شاكر خصباك: في الجغرافية العربية، دار الحداثة، ط١، بيروت، ١٩٨٨

٩-عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق رشيد رضا وأسامة صلاح منيمنة، دار إحياء العلوم، ط١، بيروت، ١٩٩٢.

١٠-عبد الرحيم مودن/عبد الرحيم بنحادة: السفر في العالم العربي الإسلامية سلسلة ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، ٢٠٠٣.

١١-عبد القادر زمامة: مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق، مجلة المناهل، ع٢٥-ديسمبر١٩٨٢.

١٢-ابن منظور: لسان العرب، حققه عبد الله علي وآخرون، دار المعارف، القاهرة، المجلد٣، مادة" رحل".

١٣-الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، جزئين، منشورات عكاظ، ط٢، الرباط، ٢٠٠٢.